مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [2.32].

الزمن الازدواجي
مساهمة في المفهمة

أ.د. عبد العزيز غوردو
أستاذ التاريخ والحضارة
المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين
وجدة – المملكة المغربية

مُلَخّص

يتناول المقال مفهوم "الزمن الازدواجي" بوصفه مدخلاً لتحليل إشكالية التحقيب التاريخي في السياقات غير الغربية، منطلقًا من حالة المغرب مطلع القرن العشرين. ينطلق الباحث من تساؤل فلسفي وتاريخي حول ماهية الزمن، مستعرضًا مقاربات فلسفية (أرسطو، هايدغر) وفيزيائية (النسبية، الزمكان) تُظهر أن الزمن ليس كيانًا بسيطًا أو موحدًا، بل تجربة نسبية تختلف حسب الوعي والسياق والحركة. ينتقل المقال لتحليل "الزمن الازدواجي" من خلال قراءة نقدية لرحلة الصحافي الإيطالي لويجي برزيني إلى المغرب عام ١٩٠٦، والتي تُظهر تصادمًا بين زمنين: زمن أوربي معاصر متقدم، وزمن مغربي وسيط راكد. ويكشف الباحث كيف أن المقارنة الحضارية التي أجراها برزيني — من خلال مشاهداته للأسواق والملابس والبنى الاجتماعية المغربية — تؤكد انشطار التجربة الزمنية، إذ يعيش المغاربة زمنًا فيزيقيًا مشتركًا مع أوربا، لكنهم غارقون في زمن تاريخي مختلف، ما يجعلهم يظهرون كمن يعيش في "ماضٍ ممتد". ينتقد الباحث الإسقاطات غير الواعية التي يمارسها المؤرخون المغاربة عند إخضاع تاريخ المغرب للتحقيب الغربي، مؤكدًا أن مفاهيم مثل "الحديث" و"المعاصر" لا يجب أن تُستعمل إلا بعد مساءلتها: حديث بالنسبة لمَن؟ ومعاصر بأي معنى؟ كما يشير إلى أن الزمن لا يُقاس فقط بمؤشرات الكرونولوجيا، بل بمخرجات الحضارة والثقافة والسيرورة التاريخية. النتيجة الأساسية للمقال أن الزمن التاريخي ليس إطارًا موحدًا، بل يمكن أن يكون "ازدواجيًا" ومفككًا في السياقات التي لم تمر بنفس السيرورات التحديثية الغربية، وهو ما يفرض مراجعة نقدية لأدوات التحقيب ومفاهيم الزمن التاريخي في الفكر العربي.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ١٩ يناير ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٢١ فبراير ٢٠٢٥

كلمات مفتاحية:

الزمن الفلسفي؛ الزمن الفيزيائي؛ الزمن التاريخي؛ التاريخ الوسيط؛ الزمن الظاهري

معرّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2025.446485

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عبد العزيز غوردو. "الزمن الازدواجي: مساهمة في المفهمة".- دورية كان التاريخية.- السنة الثامنة عشرة- العدد السبعون؛ أغسطس ٢٠٢٥. ص ٥٤ – ٦٢.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Corresponding author: a.ghourdou@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّورِيةُ كَان التَّارِيخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةٌ

تأتي هذه الورقة ضمن محاور الندوة التي اختار لها معدوها عنوانًا: «من "تحت الخيمة"[١]: في متابعة للمفاهيم المهيكلة لدرس التاريخ (الزمن؛ المجتمع؛ المجال)»؛ وتقع تحديدًا تحت علامة "الزمن" البارزة في هذا العنوان. يعرف م. بلوك الزمن بأنه «البلاسما التي تسبح فيها الوقائع التاريخية المدركة، والمفسرة، بالعقل؛ لكنه – أي الزمن – هو ما يسبح فيه المؤرخون أيضًا.»[٢]. فهل هذا التعريف كاف، مكتف بذاته، حقًا؟

لا ننفك نردد، مع كثيرين، ومنذ عقدين على الأقل، بأن المغرب لم يعرف غير تاريخ "وسيط ممتد" منذ اتصال الإسلام الأول به، وحتى مصاقبة الاستعمار مطلع القرن العشرين؛ ما يجعلنا – أمام هذه المصاقبة – نعيش أزمنة متداخلة عندما يحضر "الآخر" فيها بقوة لحظة استحضار المقارنة؛ ونشير إلى أن الأمر لا يتعلق برفض التسمية (الوسيط؛ الحديث؛ المعاصر) من حيث المبدأ، بل فقط عندما نقول الحديث، يجب أن نتبعه بسؤال: حديث بالنسبة لَمَنْ؟ ولأنه بالاستتباع يُصار إلى السؤال: متى (متى دخلنا هذا العصر وخرجنا من ذاك وبناءً على ماذا)؟ وهذا يتداخل مع شبكة مفاهيم مركبة ومعقدة فعلاً، ليس على المستوى النظري، بل على مجريات الأمور على أرض الواقع (مثلاً في موضوع تحديث المغرب نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين الميلادي؛ يمكن التمييز بين التحديث والحداثة والتغريب... وفي مجال المقارناتية "Comparatisme" نقول بأن اليابان عرفت التحديث أما المغرب فلم يعرف غير شكل من أشكال التغريب، وكلاهما – المغرب واليابان – يعيش اليوم تحت مؤثرات الحداثة). وإنّ في هذا الطرح كله علاقة وطيدة بنظرتنا للزمن، أقول لُمخرجات الزمن، بما أن ماهيته لا تُدرك إلا من خلال مخرجاته.

أولاً: الزمن.. من منظور أوسع (الفلسفة والفيزياء)

١/١-شيء من الفلسفة

اعتبر أرسطو، منذ ٢٤ قرنًا، بأن الزمان لا يمكن أن ينفك عن الحركة؛ وذلك «أننا عندما لا نشعر بتغير في وعينا أو أننا تغيرنا ونحن لا نشعر لم نفطن إلى أنه مر زمان ما. وهذا نفس الشعور الذي انتاب الرجال ممن جاء ذكرهم في الأسطورة بأنهم كانوا قد ناموا مع الأطفال في البلد المسمى سردينيا: ذلك بأنهم لم يشعروا حين انتبهوا من نومهم فكانوا يضيفون "الآن" المتقدم لنومهم إلى "الآن" التالي ويجعلونهما واحدًا»[٣]؛ فعندما نأخذ مستوى واحدًا من التغير، ونفرض له "آنا" معينة، فإننا نحصل في النهاية على نوع واحد من ال"آن"، ومع ذلك: «هل لكل نوع منها زمان مختلف، وهل يجب أن يوجد زمانان متساويان؟ فنقول ليس الأمر كذلك لأن نفس الفترة من الزمان هي التي يعدها "الآنان" في كل مكان في ذلك الوقت.»[٤].

ثم إنه لم يبحث فلسفيًا في الزمن بعد أرسطو مثلما فعل هايدغر، الذي مَرْكَزَ فكره – عن الزمان – حول "الدازين"[٥]، بأن وضعه في بؤرته وجعله ينخرط في تصور يعيد بناء الوعي وتشكيله لكينونة الإنسان، بما هو دازين، والدازين يبلغ "ماهيته" في الوجود الأصيل[٦]، أي إنه محاولة لتصور الوجود من خلال التجربة الذاتية والعالم الموضوعي باعتبارهما كينونة واحدة. لكن، وبما أنه "لا كينونة بدون زمان" (لأن الكينونة هي التي تتزمّن في الزمانية)، فإنه «لكل كينونة زمن خاص»[٧]. والكينونة لا تتبدى إلا من خلال الاستشراف الابتدائي الذي يهبها المعنى[٨]، حيث إنها «ليست ممكنة إلا بوصفها مستقبلية»[٩]. وكل هذا لا يتحقق «إلا بقدر ما يكون الدازين في عمومه باعتباره أنا أكون – ما – كنت، هو يمكن أن يُقدم على نفسه من جهة المستقبل، على نحو ما يعود إلى الوراء.»[١٠]؛ فينغلق المعنى هنا ليصير دائريًا، ومفتوحًا، على ما انتهت إليه الفيزياء «إن المضمون الظواهري لهذا المعنى، المستمد من هيئة الكينونة التي من شأن الاعتزام المسبق، إنما يستوفي دلالة مصطلح الزمانية. وينبغي للاستعمال الاصطلاحي لهذه العبارة

أن يستبعد منذ البدء كل دلالات "المستقبل" و"الماضي" و"الحاضر" المنجرّة عن التصور العامي للزمان. وذلك يصدق أيضًا على التصورات المتعلقة بزمان "ذاتي" و"موضوعي"، أو "محايث" و"مفارق»[١١].

نخلص مما سبق إلى أن الزمان يشغل جزءًا كبيرًا من كيفية تجربتنا للعالم، ومع ذلك فهو يقع خارج حواسنا لأنه ليس شيئا يمكننا رؤيته، أو سماعه أو لمسه أو شمه كما أنه يستحيل الشعور به وجدانيًا (عاطفيًا أو انفعاليًا)، صحيح أنه يمكن قياسه لكن ذلك لا يجيب عن السؤال: كيف نختبر الزمان بما هو تجربة واقعية معيشة؟ فهذه التجربة لا ترتبط من حيث المبدأ بأدوات قياس الزمان (الساعات والدقائق والثواني...) كما قد نتوهم، فنحن عندما نتحدث عن الوقت لا نتحدث عنه بأدوات قياسه، بل من خلال التجربة الحياتية، فعندما نكون بصدد تهييئ مشروع ضخم محدد بجدول زمني لإنهائه، تبدو لنا الأيام تمضي بسرعة كبيرة، بينما تمضي الثواني ببطء شديد عندما نكون داخل حلبة للملاكمة ونكون في وضع من يتلقى اللكمات؛ إن إدراكنا للوقت يتحدد انطلاقًا من الموقف الذي نوجد فيه وكذا ما نرغب في تحقيقه. إن الوجود في الواقع يعني ما نحن عليه وما هو العالم، فهما مرتبطان بشكل وثيق (ولهذا اعتُبرت الفينومينولوجا فينومينولوجيا من مدخل الاقتضاب والتعالي) بحيث لا يمكن الحديث عن العالم بعيدًا عن تجربتنا، وبهذا المعنى فإن تجربتنا لا يمكن فصلها عن العالم الاجتماعي والطبيعي الذي نحن فيه.

٢/١-في ماهية الزمن الفيزيقي

لا يدرك الزمن الفيزيقي إلا من خلال لقائه التلازمي الإلزامي مع المكان، فمنذ أن كشف مينكوفسكي[١٢] بأن الزمان والمكان لا يمكن التفكّر فيهما إلا من خلال بعضهما، وإلا تحولا إلى مجرد ظِلال؛ أدرك العالم حقيقة نسيج الزمكان كما غزله تلميذه أينشتاين في نوله سنة ١٩٠٥[١٣]، لينضاف بعد رابع إلى الوجود (الطول والعرض والارتفاع والزمن) في النسبية الخاصة، قبل أن يضفي على المعادلة تعقيدًا أكبر مع النسبية العامة سنة ١٩١٥؛ ولنتوقف عند المقولة: ليس هناك غير الماضي لأن سهم الزمن منطلق دائما باتجاه الأمام، ولأن ما تبصره العين وتدركه الذاكرة من وقائع لا يعدو أن يكون لحظة آنية مسحوبة إلى الماضي[١٤]؛ بل أكثر من ذلك: إن جسمًا يسير بسرعة الضوء فإن زمنه يصبح ثابتًا أو متوقفًا أبدًا، أما بالنسبة للضوء نفسه فلا يوجد شيء يسمى زمنا؛ وأخيرًا بالنسبة للكوانطا، أو للعالم الذري، فإن كل القوانين تتعطل لدرجة تصيب بالدوار.

الزمن في منظور الفيزياء، كما الفلسفة، نسبي ويتفاوت من منظور لآخر، ومن موقع لآخر؛ ليس بسيطا كما نعرفه نحن من خلال خط الزمن، الذي بسّطته المقررات الدراسية حتى صار مبتذلا، بل هو يمر عبر التواءات وانحناءات وارتكاسات وتراجعات... حتى لو بدا في شكله الأعم بأنه يسير دائما نحو الأمام أي باتجاه المستقبل، لأن السير بغير هذا الاتجاه غير متحقق إلا نظريًا كما برهنت عليه نسبية أينشتاين. هذا التوجه نحو الأمام يجعلنا نحتاج إلى محددات فلكية تساعدنا على ضبط إيقاعنا اليومي، وهو ما جعل الإنسان الأول ينتبه إلى دورات القمر، ثم الحركة الظاهرية للشمس، ومن ثم اعتمادهما لتنظيم حياته من خلال تقسيم الزمن إلى وحدات (أيام؛ شهور؛ فصول؛ سنوات...) ما انتهى بنا إلى ما نسميه بـ"التحقيب التاريخي"، الذي يجعل الزمن الفلكي - المعتمد على أدواتنا التحقيبية كما توافقنا عليها - للنص الذي بين أيدينا هو سنة ١٩٠٦، أي مطلع القرن العشرين.

ثانيًا: الزمن الازدواجي

١/٢-نظرة في نص برزيني

عمليًا إذن نحن في مطلع القرن العشرين، وتحديدا سنة ١٩٠٦م، حيث يبدو للوهلة الأولى أن زمن المغرب هو نفسه الزمن الحالّ في كل أمكنة العالم؛ لكن هل هذا هو الواقع فعلاً؟

قلنا سابقًا بأن الإنسان ما انتبه إلى الظواهر الفلكية إلا لاستعمالها في ضبط إيقاع حياته، لتطوير معيشه الفردي والمجتمعي (تطوير إنتاجه الفلاحي والحرفي والثقافي...)، وهذه المتابعة تقوده إلى رسم معالمه الحضارية في النهاية. لذلك فإن استحضار البعد الزمني لا يتأتى من أجل ذاته، فنحن لا نقارن سنة ١٩٠٦م في المغرب بنظيرتها (سنة ١٩٠٦م) في إيطاليا

مثلا، موطن برزيني، بل نقارن البلدين (المغرب/إيطاليا) كما انتهيا إلينا حضاريا سنة ١٩٠٦م، حيث تنبهنا المقارنة إلى "شخصية" الزمن "المتصدع"، غير المتكيف مع الواقع، الذي هو أشبه ما يكون بمزدوج الشخصية في عيادات الطب النفسي. الزمن المضمر عند المؤلف، أو الزمن الازدواجي، لا يحضر إلا من خلال المقابلة بين الزمنين، والمقابلة لا تتأتى إلا عبر المقارنة بين حضارتين (أوربا والمغرب). أوربا تعيش التاريخ المعاصر، مطلع القرن العشرين؛ والمغرب يعيش مطلع القرن العشرين لكن في التاريخ الوسيط. وهذه المقارنة لم تتشكل عند الصحافي الإيطالي وحده، بل هي نتاج ثقافة حاضرة في ذهنية الآخر/الغربي، حيث زمنه غير زمن الأنا/المغربي؛ ولذلك فبرزيني ليس وحده في هذا المستوى من الاستنتاج (نستدعي بهذه المناسبة إدموند دوتي؛ روبير مونطاني؛ بول باسكون؛ إرنست جيلنر؛ ريشي تيين...)[١٥]؛ ولذلك أيضًا فإننا لن نسترسل طويلاً في عرض الاستشهادات عند برزيني، بل سنكتفي بأمثلة دالة فقط.

يقول الصحافي الإيطالي: «إن المغرب يتآكل، وهذه الإمبراطورية تتعفن منذ خمسمائة عام وتتبدد قواها، دون أن تتفطن أوربا إلى ذلك.»[١٦]. هنا يتوقف الزمن التاريخي عند هذا الشعب، الذي لا يفطن إلى أن الزمن الفيزيقي ما زال مستمرا ولا يتوقف، بل لا يمكنه أن يتوقف؛ أما هذا الشعب فلا زال «يفخر بأصوله وبدينه، وهو منغلق على أعرافه القديمة، كما هي الحال مع السلهام التقليدي ناصع البياض الذي يلبسه منذ عشرات القرون... وأكثر من ذلك، فهو شعب محارب ما يزال يستحضر غزواته القديمة، ويعتبر مسجد قرطبة ملكًا له، وما تزال عدة أسر تحتفظ ضمن كنوزها بمفاتيح أسلافها الذين سكنوا غرناطة وإشبيلية، وتستعرض جذور أنسابها العميقة بقلب أوربا.»[١٧].

لا يتردد الإيطالي المفعم بحيوية الشباب على التصريح بأنه «كان من المقرر أن أنطلق في سفري على الساعة الثامنة صباحا، لكنني تأخرت في ترتيبات السفر مدة خمس ساعات، وهي مدة طويلة في بلد لا يتم فيه التنقل عبر السكك الحديدية...»[١٨]؛ ذلك أنه كان سيسافر على رأس قافلة[١٩]، كما يحرص على تذكيرنا في ثنايا الخطاب، وحيث تحضر المقارنة بين السكة الحديدية، رمز الثورة الصناعية وعصر البخار، والقافلة التي تعيد إلى زمن العصر الوسيط: «يفتقر المغرب إلى الطرق، بما فيها المرصفة بالتراب، الشيء الذي أسهم في بقاء البلد على حاله البدائية. إن تقدم الحضارة يتوقف أساسا على الطرق... والحق أن الحضارة لا تتقدم إلا على العجلات."[٢٠]؛ لكن المغرب "لم يكتشف عجلته الأولى بعد، أو أنه نسيها.»[٢١].

إن الطرق والعجلات تربط المصالح والتجارة إلى بعضها، ما يجعل الناس يتحركون بسرعة واستعجال ولا يصبحون متحكمين في وقتهم، كما الحال عند الغرب؛ أما هنا، في المغرب، فالحركة تمضي ببطء ورتابة وانسيابية وهدوء... السير، ومن ثَمَّ الزمن، هناك/أوربا سريع ومستعجل؛ أما هنا/المغرب فالأمور تسير بوتيرة منهكة[٢٢]. «وكأننا بصدد استفاقة جديدة وبإحساس حرية مستعادة»[٢٣]. فمن «المؤكد أنه في عمق ذاكرتنا الغريزية، ثمة ذكرى لا شعورية لحياة الترحال، ذكرى نائمة منذ قرون...»[٢٤]. الرحلة من طنجة إلى فاس – في الزمن المتوهم الحاضر في ذهن برزيني – "قد تستغرق بضعة أشهر"، والواقع – كما يقول مترجما الكتاب – هي لا تستغرق حتى بمعيار "الزمن المغربي" وقتذاك إلا بضعة أسابيع[٢٥].

لكن اللغة تفضح صاحبها دائمًا، وهو ما تدل عليه العبارة التالية التي تختزن كل المفارقة في ذهنه عن الزمنين[٢٦]: «إن التميز (بين الحضارتين: الإسلامية والأوربية) واضح بطنجة. والشرق والغرب يعيشان بها جنبا إلى جنب دون اختلاط، والقرن الثالث عشر والقرن العشرون بها، يتجاهل كل منهما الآخر، فنحس أننا ننتقل من هنا إلى ذاك عشرات المرات في اليوم.»

ثم يؤكد: «لا يختلف احتشاد الناس في مدننا بشكله القديم عن مظاهر احتشاد السكان الأصليين بطنجة. فجماعات الرهبان، الذين خلفوا لنا حتى الآن الأزياء الشعبية الخشنة لألبسة العصر الوسيط، ما يزالون يظهرون بأزقتنا بعباءات شبيهة، بشكل خاص، بالجلابة المغربية التي هي عبارة عن عباءات حقيقية. ويبدو سكان جبالة، الذين هم جبليو البادية الطنجية، كأنهم رهبان فرنسيسكان، ويظهر العرب مثل رهبان دومينكان،

ويوجد بالأسواق بدويو الجنوب بأقبابهم المدببة والطويلة جدًا مثل شريط على أكتافهم، ويمكن أن نتعرف من خلال لباسهم على القبّ الفلورنسي. كما أن السلاهم المتداولة هنا، التي هي عبارة عن عباءات من الصوف الخشن بقبّ كبير، تشبه ما نراه على أكتاف التجار والبحارة على اللوحات المرسومة، وفق أسلوب البندقية في الرسم. وتلف على رؤوس الشخصيات المرموقة والشريفة رُزز مطرزة، تتدلى بفخر على الأكتاف وتحيط بالأعناق، وهي تذكّر كثيرًا بتسريحات رعاة الفن الأنيقة الذين يظهرون إلى جانب العذارى خلال القرن الثالث عشر. إن هذا الشعب الذي يختلف عنا كثيرًا في المظهر والروح، كان يشبهنا في الماضي.»[٢٧].

لا تكاد تمر صفحة دون أن ينعقد شكل، أو حتى أشكال، من المقارنة بين الأنا والآخر، "الأنا" بالنسبة إليه هو "الأوربي/المتقدم" و"الآخر" – الذي نعتبره نحن "أنا" – هو "المغربي/المتخلف" ("الآخر" هو "الأنا" لكن منظورا إليه من الجهة الأخرى)، وهكذا فلي "زمني التاريخي" وله "زمنه"، يجتمعان فيما يبدو فيزيقيا، لكنهما يَنْأَيَان كثيرا عن بعضهما عندما تحضر المقارنة... ولهذا «كنا (جماعة الأوربيين يقول الكاتب) نحس بهذا التناقض العجيب بين الحضارة التي غذتنا، وهذا العصر المغربي الوسيط الخلاب.»[٢٨].

«كان المغاربة يحتفلون بعاشوراء، وهو كرنفال مغربي... كان الموكب يغمر الأزقة، وكانت الفوضى تتلاشى بممرات الجسور المظلمة... وتخرج من بين الظلام الواحدة تلو الأخرى باتجاه الأسوار الحزينة البيضاء والمغلقة التي تتعدم فيها النوافذ. وبعد هذه المشاهد التي تعود إلى زمن غابر، كانت البواخر التي تعلوها مصابيح كهربائية وتسدل ظلالها الممتدة على مياه الميناء، تُحدِث عند مشاهدتها نوعًا من الدهشة، تتجلى في أننا نعيش حياتين، ونتواجد في بلدين وبين عصرين وحضارتين في الآن نفسه.»[٢٩].

وبعد أن يستعرض برزيني حالة الأسواق المغربية يقول مستنتجًا: «وقد شهد العصر الإيطالي الوسيط هذه الظاهرة بدوره...»[٣٠]؛ فأحوال المغرب اليوم هي نفسها أحوال إيطاليا، لكن في عصرها الوسيط. إنه يقارن بين بلدين/حالتين تاريخيتين، من خلال ما وصلت إليه حضارتاهما. يقفان على عتبة زمن فيزيقي واحد (مطلع القرن العشرين، وتحديدًا سنة ١٩٠٦م) لكنهما يعيشان لحظتين أو زمنين تاريخيين مختلفين، أحدهما ما زال يجتر عوادي العصر الوسيط، والآخر يقف في منتصف التاريخ المعاصر، بعد أن عبر مسافة كاملة تفصل بين العصرين، وهي مرحلة التاريخ الحديث (بمعايير الإبستيمولوجيا الأوربية).

نتساءل: إذا كان الوضع فعلاً على هذه الحال في طنجة (ملقى الحضارتين بما يسمح بالمقابلة بين الزمنين مباشرة)، فكيف سيكون عليه الوضع داخل المغرب البعيد والعميق (مغرب الهامش، أو قل الهوامش)[٣١]؟ ولعل هذا ما سيجعل الكتاب والرحالة وحتى الأناسين الفرنسيين يقفون عند مقارنة سادة الأطلس الكبير (الكلاوي والمتوكي والعبدي وعيسى بن أحمد...) بسينيورية أوربا الفيودالية لاحقًا.

نقول هذا ونحن نستحضر للمقارنة لحظة فارقة في التاريخ البشري وهي سنة ١٤٩٢م، الموسومة باكتشاف أمريكا، حيث يقف كريستوف كولمبس على ساحل "هيسبنيولا" دون أن يفرق بين يومه وأمسه، فكلاهما متشابه عنده، أما فيلسوف التاريخ في القرن ١٩م فيرى بأن اللحظة التاريخية (١٤٩٢م) توثق لحادث مفصلي بين عصرين (الوسيط والحديث)؛ فيما يقف الهندي الأحمر مشدوها أمام كل هذا البله. لك أن تتصور كيف يمكن لشخص، وليكن كريستوف كولمبس، أن يقف على ساحله يوما ويقول له: "لقد اكتشفتك!" اكتشفت ماذا أو من أيها السخيف، أنا موجود هنا منذ القدم! لا يمكن لكريستوف كولمبس والهندي الأحمر أن يدخلا تلك اللحظة من باب واحد هو التاريخ الحديث؛ فالأول جاء مدججا بالسلاح الناري والمدفعية وسفن الكرافيلا وعاش زخم النهضة الأوربية ويقف على مرمى حجر من الإصلاح الديني... وله كل المقومات التي تغريه بتوديع عصره الوسيط؛ أما الثاني فلم يدجن الحصان بعد ولم يدخل عصر الحديد بعد! وما زالت ملامح البدائية حاضرة فيه بقوة، وكأنه في أحسن الأحوال يتجول بين أفياء العصر البرونزي.

إن المشكل الذي يترتب عن هذا النوع من الكتابة، والقراءة، ومن ثم التأويل، لَمُرَكَّبٌ فعلا. يرى برزيني

الذي يعيش عمليا سنة ١٩٠٦م أوربا من مدخل التاريخ المعاصر، لكنه يرى بأن المغرب الذي يعيش أيضًا سنة ١٩٠٦م ما زال يعيش تاريخه أو عصره الوسيط؛ أما المغربي المزامن له، فيعيش زمنه كما انتهى إليه، ويعتبره أمرًا عاديًا (لأنه لا يقارنه مع أحد آخر، ولا يستوعب دلالة التحقيب التاريخي كما يفترض فيلسوف التاريخ) فيعيش بالتالي "عصره" دون فلسفة؛ وتتعقد المشكلة عندما يكتب المؤرخ المغربي اليوم (وهو في نهاية القرن العشرين الميلادي أو مطلع القرن الحادي والعشرين الميلادي) تاريخ المغرب قبيل الحماية فيدخله تلقائيًا ضمن التاريخ المعاصر، فيضعه من الناحية الشكلية ضمن "التحقيب الغربي"، ويسقط المضمون على الشكل فيجعله ضمن التاريخ المعاصر أيضًا؛ ترى لو عكسنا المسألة وانطلقنا من المضمون (بنية الاقتصاد والمجتمع والثقافة والسياسة...) هل كنا لنقول إننا نعيش التاريخ المعاصر أيضًا؟ كيفما قلّبنا السؤال بالنظر، أو قلّبنا النظر مع السؤال، إلا وانتهينا إلى مقولة "الزمن الازدواجي المنفصم".

٢/٢-تركيب: مراجعات في زمن المؤرخ البسيط[٣٢]

نستحضر هنا أولا، وللشروط الفيزيائية والفلسفية المنوه بها أعلاه، بأن سهم الزمن يتجه دائما نحو المستقبل، وأننا نعيش دائمًا في الماضي، لأن الحاضر منفلت باستمرار، غير أننا – مع ذلك – نُقَسِّم زمننا التاريخي إلى ماض وحاضر ومستقبل، كما نقسم "آنَـ"اته، بناء على ما انتهت إليه تصوراتنا، إلى ساعات وأيام وسنوات وقرون وفترات وأزمنة وعصور وحقب... تسهيلاً لموقعة الأحداث فيها، ولضبط بوصلة اتجاهاتنا الزمنية، وإلا عشنا في عماء أبيض حليبي على رأي ساراماغو، أو متاهة مرعبة من التدفق الزمني الذي لا يكسره إلا حاجز الموت؛ وضمن هذه التدفق الكبير الذي يفرضه الزمن المتماد نجتهد في تنزيل خطاطاتنا لتكسيره (التدفق) ولتنظيمه (الزمن) عبر ما نسميه: الكرونولوجيا؛ التحقيب؛ المدة... لكننا في جميع الحالات نحن من يضع البدايات والنهايات، منهجيا، لضبط الإيقاع.

نستحضر ثانيًا، وضمن هذا الإطار المنهجي الذي انتهينا إليه، ما نتعارف عليه عند تحليل النصوص التاريخية، ونسميه بالظروف التاريخية، أو ظروف إنتاج النص، أي استحضار كل الشروط المحيطة بالنص من أجل فهمه، وتتضمن هذه الشروط مجموع السياق الحدثي باستحضار المكان والزمان؛ حيث تنتهي مقولة المكان إلى المغرب في مجاله الدولي أو الجيوستراتيجي (وهو أمر لن نتوقف عنده في هذا المقال لأنه يقع خارج الأهداف المسطر لها)، أما مقولة الزمن التاريخي فتنتهي بنا تماما عند نقطة التقاطع مع الزمن الفيزيقي، وهي في موضوعنا هنا بداية القرن العشرين (أوج تفجّر وتوحش وتغول الإمبريالية)، حيث نضعها في ظرفيتها المؤطرة بالمدة القصيرة جدا، كما كان يحلو لبروديل أن يردد.

يقودنا الزمنان (الفيزيقي والتاريخي) إلى زمن ثالث تختلط فيه الأزمنة هو: "الزمن الازدواجي". ولقد قلنا بأن الزمن الفيزيقي على علاقة وطيدة بالحركة، بحيث كلما ازدادت السرعة إلا وتباطأ الزمن، أما الزمن الازدواجي – عند المؤرخ – فيبدو على العكس من ذلك: فحيث تتباطأ الحركة يتباطأ الزمن، لأنه لا ينظر إلى الزمن في ماهيته وإنما من حيث مُخرجاته الثقافية أو الحضارية.

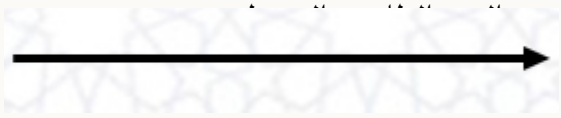

في لعبة التركيب هذه، وبالعودة إلى أرسطو، وبما أن «الزمان والحركة يقدر كل واحد منهما الآخر تقديرًا كميًا»[٣٣]، فإن معيار الزمن هو ما تثبته حركة ما. ومنه فإن الزمن المغربي بطيء في حركته، بطيء في تعداده، بطيء في سيره نحو المستقبل... وقد دل على ذلك

عادات وسلوك المغاربة في العمل وفي الأسواق وفي الأنشطة اليومية...، فكل شيء يسير على مهل، ولا داعي للعجلة أو السرعة، حتى إن أمثلة شعبية كثيرة ضُربت في مديح ذلك ("لا زربة على صلاح"؛ "الفار لمقلق من سعد القط"؛ "بالمهل يتكال بودنجال"...)؛ أما زمن إيطاليا، الذي هو زمن أوربا عموما، فهو سريع، متلاحق، مستعجل، ضاج بالحركة في العمل والحروب ومجرى المعيش اليومي.

إن مجتمعا راكدًا، أو لنقل لا يتحرك بالسرعة المطلوبة، يتباطأ زمنه إلى الحدود القصوى حتى يكاد يتوقف «فنحن عندما نحس الحركة إنما نعي الزمان»[٣٤]. ذلك أنه لما «كان المتحرك إنما يتحرك من هنا إلى هناك، وكان كل مقدار من حيث هو مقدار متصلاً، صارت الحركة تابعة للمقدار، وذلك أنه من أجل أن المقدار متصل صارت الحركة أيضًا متصلة، ومن أجل أن الحركة متصلة صار الزمان متصلاً، لأن الزمان المتصرم (باستثناء اختلاف السرعة) يتصور دائمًا متناسبًا أو على نسبة مع المسافة المقطوعة. وعلى هذا فإن الدلالة الأولية للقبل والبعد هي الدلالة المكانية للمتقدم والمتأخر.»[٣٥]: بحيث تحيل إيطاليا/أوربا على المتقدم (المعاصر)، بينما يحيل المغرب/الشرق على المتأخر (الوسيط).

وكل هذا الصراع الداخلي يجعل برزيني يتنقل بين زمنين، يعيش كالرقاص أو كبندول الساعة مترددا بين الزمنين من خلال منتوجهما أو ما خطّاه على معالم الحضارتين، وهو ما نلمسه على طول صفحات الكتاب. إنه يرى في المغرب ماضيه، وبمفهوم المقابلة فالمغرب يرى في أوربا مستقبله. هذا ما كنّا عليه في الماضي، تقول "الأنا" الأوربية؛ وهذا ما يفترض أن نصير إليه في المستقبل، تقول "الأنا" المغربية. لكن الأمور لا تجري تاريخيًا بهذه البساطة واليسر، والدليل الأقوى على ما نقوله: إن حضور الأوربي نفسه، بما هو مشروع إمبريالي، لم يأت ليسرِّع وتيرة التحول نحو المستقبل المفترض للمغرب. سيأتي مستقبل المغرب بالتأكيد (بعرف المؤلف سيخرج من التاريخ الوسيط ويدخل تاريخه المعاصر)؛ لكن هنا يطرح سؤالان: (الأول) ما محل "التاريخ الحديث" من الإعراب؟ (هل هو ضروري المرور منه؟ أم أن الأمر كما كان يحلو للينين أن يردد "ليس ضروريا أن نمر من عصر البخار حتى نصل إلى عصر الكهرباء"؟)؛ ثم (الثاني): وما هو شكل "التاريخ المعاصر" الذي سيدخله (المغرب)؟

خَاتِمَةٌ

انتهينا في حديثنا عن الزمن الفلسفي إلى أنه نسبي بحيث لا ينصرم بنفس الوتيرة على جميع الناس، والمثال الذي ضربه أرسطو هو مثال الفتية النيام الذين ذكرتهم الأسطورة. انتهينا أيضًا في حديثنا عن الزمن الفيزيائي إلى أن النسبية (الخاصة والعامة) اقتلعته من جذوره النيوتونية القديمة، التي كانت تنظر إليه باعتباره زمنًا مطلقًا في جميع الكون، بعد أن ربطته بالكتلة/الجاذبية وبالحركة/السرعة.

لننتهي – في الزمن التاريخي – عند مقولة "الزمن الازدواجي"، بالنظر إلى المعطيات الفلسفية وخصوصًا الفيزيائية التي أسلفنا، إنه زمن نسبي ومتغير وكامن (Immanent) في النص التاريخي الذي بين أيدينا، بما عناه لالاند في قاموسه عن الكمون من الزاويتين الستاتيكية والديناميكية: «منذ أن نسعى للمساواة في ذاتنا بين الإرادة المرادة والإرادة المريدة، إنما ننقاد إلى الاعتراف بوضوح متزايد أكثر فأكثر بأننا – لكي نمضي هكذا من ذاتنا إلى ذاتنا – ينبغي علينا الخروج من ذاتنا قبل العودة إليها»[٣٦].

فالزمن التاريخي عند الصحافي الإيطالي هو غير الزمن عند المغربي، لأن أوربا تعيش سنة ١٩٠٦م زمنها الذي سرّعته عجلة التقدم الصناعي والفلاحي والتكنولوجي والثقافي... في حين تباطأ الزمن المغربي، منسحقًا تحت ضغط الركود الذي راكمه التاريخ الوسيط الممتد، ووصل على حالته المتهالكة تلك إلى سنة ١٩٠٦م؛ فالأوربي يسافر في الزمن إلى "ماضيه" منظورًا إليه من خلال المغرب؛ أما المغربي فعليه أن يزور أوربا ليرى فيها مستقبله، ولعل هذا ما يفسر مظاهر الدهشة والانفعال التي كانت تبدو على ملامح أطقم السفارات المغربية التي زارت العواصم الأوربية وخلدتها حتى بعض اللوحات الفنية الشهيرة. (ملحق رقم ١)

في مقدمة هذا المقال قلنا إننا لا ننفك نردد، منذ عقدين على الأقل، بأن المغرب لم يعرف غير تاريخ وسيط ممتد منذ اتصال الإسلام الأول به؛ وفي علاقة جدلية بهذا لم ننفك نردد أيضًا بأن التاريخ ليس هو العلم الذي يهتم بدراسة الماضي؛ بل العلم الذي يهتم بدراسة السيرورات (Processus(s))، أي كيفية تبدل الأمور وتحولها من حال إلى حال. والسيرورة تفترض الحركة الدؤوب التي لا تتوقف، والحركة مرتبطة بالزمان لا شك؛ وبذلك فإن السيرورات تضعنا في مناطق متباينة زمنيًا، حتى لو بدت الأمور غير ذلك ظاهريًا؛ ولهذا فإن النموذج الغربي النمطي لتحقيب الزمن التاريخي يجب تجاوزه: إننا لا نبني المناهج لتأكيد النموذج فقط وإنما لتحطيمه أيضًا .

الملاحق

صورة رقم (١)

الدهشة، ما قبل الإبستيمولوجية، للحاج محمد تميم في عرض بالمسرح الإيطالي بباريس سنة ١٦٨٢م. على يسار السفير دو رايموندیس، وعلى اليمين حاكم سلا، ثم الحاج عبد القادر حفيد تميم، والمراكشي حفيد حاكم سلا.

اللوحة بريشة الرسام أنطوان كويبل (Antoine Coypel)

الإحالات المرجعية:

(١) "**تحت الخيمة**" هو عنوان كتاب ألفه الصحافي الإيطالي لويجي برزيني، أثناء زيارته للمغرب سنة ١٩٠٦، وقام بترجمته كل من رضوان ناصح ومصطفى نشاط، وصدرت الترجمة عن دار سليكي أخوين، طنجة، ٢٠٢٢.

(2) Marc Bloch, Apologie pour l'histoire ou Métier d'historien, 5(ème) édit., Armand Colin, Paris, 1964, p. 45.

(٣) أرسطو، الفيزياء – **السماع الطبيعي**، ترجمة عبد القادر قينيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ١٩٩٨، ص. ١٣٥.

(٤) نفسه، ص. ١٤٨. ولا شك أن المقارنة مفيدة هنا بين هؤلاء الفتية وفتية أفسوس (أهل الكهف)، من حيث إدراك عامل الزمن، ونسبيته.

(٥) الذي عرفه هايدغر بهذا الشكل المربك والمستفز: "ما هو الدازين"؟ "أن تسمح للشيء الذي يُظهر نفسه أن يُرى من خلال نفسه؟"؛ ونقول هذا بعيدا عن الترجمة الحرفية ل: (هناك: DA)؛ (تكون: SEIN)، والتي تختزل عادة في "الوجود".

(٦) هايدغر، **الكينونة والزمان**، ترجمة فتحي المسكيني، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠١٢، ص. ٥٦٤.

(٧) نفسه، ص. نفسها.

(٨) نفسه، ص. ٥٦٦.

(٩) نفسه، ص. ٥٦٧.

(١٠) نفسه، ص. ٥٦٧-٥٦٨.

(١١) نفسه، ص. ٥٦٩.

(12) Sébastien Gauthier, « Hermann Minkowski : des formes quadratiques à la géométrie des nombres », Images des Mathématiques, CNRS 12 octobre 2009, lien : http://images.math.cnrs.fr/Hermann-Minkowski-des-formes-quadratiques-a-la-geometrie-des-nombres

(13) Albert Einstein, L'inertie d'un corps dépend-elle de son contenu en énergie ? In Annalen der Physik, Septembre 1905. On trouve tous les écrits d'Einstein sur le site de l'université de Princeton, lien : https://einsteinpapers.press.princeton.edu/vol2-doc

(١٤) لا يمكننا، ونحن نتحدث عن الزمن من منظور فيزيائي، ألا نحيل على الكتاب الأشهر الذي وضعه ستيفن هوكينج، تاريخ موجز للزمن (A brief history of time) الذي نشره سنة ١٩٨٨؛ وأعاد تلخيصه لاحقًا (بالاشتراك مع ليونرد ملوندينوف) بعنوان: تاريخ أكثر إيجازا للزمن، وقد ترجمه إلى العربية كل من أحمد عبد الله السماحي وفتح الله الشيخ، وصدر عن دار العين للنشر.

(١٥) يمكن أن نستدعي بهذه المناسبة أحكام ريشيي تيين (Richet Tienne, Voyage au Maroc, éditions populaires – Vasseurs et Cie, Paris, 1909.)، حيث "يبدو المخزن - العدو لكل تقدم – كما لو أنه يصارع حتى لا يحصل أي تطور على البنى الفلاحية والصناعية العتيقة." (ص. ٩.)؛ والممثل لـ"صورة الشرق الراكد الذي لا يتحرك، وفي الأعراق المسلمة صورة المومياوات الفرعونية الميتة؛ هل هو خطأ هذا البلد الذي لا تتجدد ساكنته، بضخ دماء فتية شابة فيها، ما يجعله منضبطا في الحفاظ على طابعه المادي الوفي للقرون الغابرة." (ص. ٩٨.). أما الآخرون (دوتي؛ جيلنر؛ مونطاني؛ باسكون...) فمعروف أنهم أعدوا أطاريح كاملة قارنت بين السنيورية القروسطية الأوربية ونظام القايدية في مغرب القرن العشرين.

(١٦) لويجي برزيني، تحت الخيمة: **انطباعات صحافي إيطالي بالمغرب سنة ١٩٠٦**، تقديم وترجمة رضوان ناصح ومصطفى نشاط، سليكي أخوين، طنجة، ٢٠٢٢، ص. ٢٢.

(١٧) نفسه، ص. ٢٢. ويذكرنا هذا بالفلسطينيين الذين هُجّروا بعد النكبة (١٩٦٧م) من ديارهم لكنهم ظلوا يحتفظون بمفاتيحها إلى اليوم، حالمين بالعودة إليها يومًا.

(١٨) نفسه، ص. ٢٥.

(١٩) نفسه، ص. ٢٥.

(٢٠) برزيني، ص. ٣٧.

(٢١) نفسه، ص. ٣٧.

(٢٢) نفسه، ص. ٣٨.

(٢٣) نفسه، ص. ٣٩.

(٢٤) نفسه، ص. ٣٩.

(٢٥) نفسه، ص. ٢٥.

(٢٦) نفسه، ص. ٢٧.

(٢٧) نفسه، ص. ٢٧-٢٨.

(٢٨) نفسه، ص. ٣٠.

(٢٩) نفسه، ص. ٣٢-٣٣. وخطوط التشديد لنا.

(٣٠) برزيني، ص. ٤٥.

(٣١) لأنه، بالقطع، ليس هناك هامش واحد متجانس؛ بل هوامش متعددة ومتراكبة، بحيث يبدو الواحد منها هامشا للآخر: فهامش الدار البيضاء أو فاس هو غير هامش خنيفرة أو فيكيك (حيث يفترض أن المدينتين الأخيرتين، خنيفرة وفيكيك، هما أصلاً هامش للدار البيضاء وفاس)، وهامش الغرب أو زعير هو غير هامش الهضاب العُليا أو الأطلس الصغير الشرقي، وهكذا...

(٣٢) ننوه إلى أن النعت/ "البسيط" قد يعود على المؤرخ كما قد يعود على الزمن في الوقت نفسه.

(٣٣) أرسطو، مرجع سابق، ص. ١٤٩.

(٣٤) نفسه، ص. ١٣٥.

(٣٥) أرسطو، مرجع سابق، ص. ١٣٥-١٣٦.

(٣٦) أندريه لالاند، **موسوعة لالاند الفلسفية**، تعريب خليل أحمد خليل، منشورات عويدات – باريس، ط.٢، ٢٠٠١، م. ٢، ص. ٦٢٥.